دراسة بلاغية لأدعية الأنبياء في القرآن الكريم

The Rhetorical Study of Supplications of Prophets in the Quran

الدكتور عبد المجيب محمد نصير الدين[i] زين العابدين[ii]

Abstract

Quran is the richest book in Arabic language with respect to Eloquence and Rhetoric. It has always been a major source of reference for scholars doing research in the mentioned areas.

In this research paper we have focused on a specific genre of Quran's text; the supplications of some prophets. The Prophets whose prayers are discussed in the research paper are:, Shuaib, Loot Eesa, Sulaiman, Ayyub, Zakaria, Yusuf, (A.S). The key points which are discussed in the research paper are: brevity through expunction, Separation (الفصل), metaphor and its kinds, the consistent repetition of Nida' (نداء), selection of words, contextual study, use of proper and common noun, metonym, inspirational secondary meanings and other genres pertinent to art of Eloquence and Rhetoric.All the mentioned points are beautifully discussed with pregnant results. The primary and secondary sources are given at the end.

الأنبياء والدعاء

لقد سجّل القرآن الكريم عديدا من الأدعية التي جرت على ألسنة الرسل من غير أولي العزم منهم –عليهم وعلى رسولنا أفضل الصلاة وأتم التسليم–، وقد تناثرت تلك الأدعية في آي القرآن الكريم، ووردت بأساليب متعددة، وفي معظم الأحيان جاءت في سياقات قصصهم التي رواها القرآن الكريم بأسلوبه البليغ، وتعبيراته الرائعة، ومن المعلومات الرئيسية في هذا الباب أن القصة القرآنية الواحدة قد تأتي في أكثر من موضع، ولكن بأسلوب مختلف، وتعبير متغير، وبالتالي تختلف معها الأدعية التي ترد فيها على ألسنة أنبياء الله المرسلين –عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم–، وفيما يلي سيقتصر

[i] أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد.

[ii] أستاذ محاضر بقسم اللغة العربية، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد.

الحديث على بعض الأدعية القرآنية التي تضرع بها رسل الله –عليهم السلام– إلى ربهم الكريم، وخالقهم الرحيم، وذلك لنقف من خلاله على جمال الأسلوب القرآني، وروعته، ولطائفه المعنوية، وبعض أسراره البلاغية.

دعاء زكريا عليه السلام

فمن الأدعية الرائعة التي سجلها القرآن الكريم بأسلوبه الفذّ، وطريقته الفريدة دعاء زكريا عليه السلام أحد الرسل من غير أولي العزم المذكورين في القرآن الكريم، وقد وردت قصته عليه السلام في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم، وفيها أدعيته التي اختلفت من سورة إلى أخرى، إلا أن أطول تلك الأدعية التي وردت بالتفصيل هو ما تحدث عنه القرآن الكريم في الآيات التالية من سورة مريم:

كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً{ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً[1].

إن من المعلوم أن زكريا عليه السلامكان شيخا مُسنّا، وكان امرأته عاقرا، وكان يخشى على بني إسرائيل أن يُبتلوا بمواليه لما يعلم من حالهم، وعدم استمساكهم بالشريعة [2]، فدفعه ذلك، وما رآه من إكرام الله تعالى لمريم عليها السلام حين قال: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [3] إلى أن يقف متضرعا بين يدي ربه، ليرزقه الذرية، ويهب له وليا صالحا، يقول: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء[4]، ورفع دعاءه في ضراعة، وخفية، شاكيا إلى ربه حاله وضعفه، وشيخوخته، معترفا بأن الله تعالى قد عوّده أن يستجيب إليه إذا دعاه، فلم يَشقَ مع دعاء ربه وهو في قوته، فما أحوجه الآن وهو في ضعفه وكبره أن يستجيب الله تعالى له، ويُتمّ عليه نعمته. فبعد أن ذكر في بداية

السورة كل هذه البواعث والأسباب عرض مطلبه الأساسي، وأمله الذي يرجوه من ربه تعالى (فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً).

المظاهر الجمالية في دعاء زكريا عليه السلام:

ومن يتأمل هذا الدعاء يجد أنه ورد في أسلوب بليغ يحمل عددا من مظاهر البلاغة الجمالية، وذلك ليدل على المراد بأبلغ عبارة، ويعبر عن المقصود أحسن تعبير لا يقدر على مثله الإنس والجن وإن اجتمعوا، ومن مظاهر بلاغته إيجاز الحذف في قوله: (ذكر رحمت ربك)، أي: "المتلو من القرآن ذكر رحمت ربك... وقيل: (ذكر) مبتدأ حذف خبره، أي: فيما يتلى ذكر رحمة ربك [5].

ومنها التعريف بالإضافة في قوله (ربك عبده)، وذلك لتكريم وتشريف المضاف إليه في هذا الموضع، وهو النبي عليه السلام في (ربك)، وزكريا عليه السلام في قوله (ربه)، وهذه الإضافة توحي بجو من الرعاية والعناية التامة بهذين النبيين الكريمين. كما أن في وصف النداء– الذي يوهم الرياء أمام الناس – بالخفيّ إطناب احتراس[6]، فجيء به ليرفع الإيهام الموجود في كلمة النداء، ولأنه " أبعد من الرياء، وأَدخلُ في الإخلاص"[7]، وهو ما يشبه ما ورد في قوله يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ [8]، حيث جيء ب(أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) احتراسا، وذلك لأنه لو أُقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين، لتوهّم أن ذلتهم لضعفهم، فلما قيل: (أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) عُلم أنها منهم تواضع لهم. وخفض الصوت من آداب الدعاء، ومن أسراره، وحكمه " لأنه أعظم في الأدب، وأبلغ في التضرع، والخشوع والإخلاص، وأدل على على قرب صاحبه إلى من يدعوه، وهو الله القريب المجيب"[9].

وفُصلت جملة (قال رب إني وهن العظم...) عما قبلها للاستئناف البياني، لوقوعها جوابا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، فكأنه قيل: ما ذلك النداء؟ فقيل: "قال رب ...).

ولا يخفى ما في حذف حرف النداء من (رب)، وحذف ياء المتكلم من بداية الكلمة من إيجاز يوحي بشعور الداعي بقربه من ربه، كما أن تكرار النداء في هذه الآيات فيه مزيد من التضرع، والابتهال، والاسترحام، ورجاء إجابة الدعاء.

وتحتوي الآية الكريمة (إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً) على جمال النظم، وروعة التصوير، فوهْن العظم، واشتعال الرأس كنايتان عن الضعف والشيخوخة، فأصل المعنى (يا ربي قد شِختُ)، ولكن بتأمل بسيط بين التعبيرين يتضح الفرق جليا، وقد أُكّدت جملة (إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) لإظهار مزيد من الضعف والخشوع.

ومن لطيف ما تحمله الآية هو استعارة الاشتعال لانتشار بياض شعر الرأس في سواده في قوله تعالى (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)، وهي من الاستعارات البديعة والجميلة، حيث شُبّه اتشار الشيب، وكثرته باشتعال النار في الحطب، بجامع البياض والإنارة، وقيل: بجامعة الانبساط والانتشار، واستعير الاشتعال للانتشار، واشتُقّ منه (اشتعل) بمعنى (انتشرَ) على سبيل الاستعارة التصريحية[10]. يرى عبد القاهر الجرجاني –رحمه الله– أن مرجع المزية، والروعة أو الجمال في قوله تعالى(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً) ليس لمجرد الاستعارة، بل إن المزية ترجع أيضا إلى النظم المتمثل في في إسناد الفعل (اشتعل) إلى (الرأس)، فأفاد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمولَ، وأنه قد استغرق، وعُمّ جملته، وهذا ما لا يكون إذا قيل: (واشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس)[11]. ويقول السكاكي –رحمه الله– عن هذه الاستعارة في قوله تعالى: (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً) إنها: "أبلغ من جهات: إحداها: إسناد الاشتعال إلى الرأس، لإفادة شمول الاشتعال الرأسَ ... وثانيها: الإجمال والتفصيل في طريق التمييز، وثالثها: تنكير (شيبا) لإفادة المبالغة..."[12].

وتكرار النداء في قوله(وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً) بعدما سبق ذكره في قوله (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) جاء للمبالغة في التضرع، والابتهال، والاسترحام، يقول أبو السعود – رحمه الله–: والتعرضُ في الموضوعين لوصف الربوبيةِ المنْبئة عن إضافة ما فيه صلاحُ المربوبِ ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لا سيما توسيطُه بين كان وخبرها لتحريك سلسلةِ الإجابةِ بالمبالغة في التضرّع ، ولذلك قيل : إذا أراد العبدُ أن يُستجابَ له دعاؤُه فليدعُ الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاتِه"[13].

ومن بلاغة الحذف ما ورد في قوله تعالى: (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي) أي: خِفتُ فعل الموالي الذي هو تبديلهم، وسوء خلافتهم من بعدي، وهو من إيجاز حذف

المضاف. وقيل: المراد هو ولاية الموالي، بمعنى: خِفت الذين يَلُون الأمر من ورائي، أي: بعد موتي [14].

ومن بلاغة الأسلوب الدعائي في الآية نفسها هو أن قُدّم الجار والمجرور (مِن لَّدُنكَ)، وذلك " لتأكيد كونه وليا مرضيا بكونه مضافا إلى الله تعالى وصادرا عنه"[15] ، وأُخّر (وَلِيّا) عن الجارَين وهما (لي و من لدنك) في قوله تعالى: (فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً)، وذلك، " لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر، فإن ما حقه التقديم إذا أُخّر تبقى النفس مستشرفة له، فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكّن، ولأنه فيه نوع طول بما بعده من الوصف، فتأخيرهما عن الكل، أو توسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم"[16]. ومما دعا إلى أن يتقدم (لي) على (من لدنك) هو أنه " الأهم في غرض الداعي، وهو غرض خاص يقدم على الغرض العام)[17]. ومن المواضع التي يتجلى فيها اهتمام القرآن الكريم على اختيار الكلمات المناسبة، واصطفاء الألفاظ التي لا يمكن لغيرها القيام بتأدية المعنى المراد على الوجه المطلوب هو اختيار كلمة (هب) حيث آثر زكريا عليه السلام تقديم تضرعه لله تعالى معبرا بها عن حاجته للولد، وذلك " لأن الهبة إحسان محض ليس في مقابلتها شيء يكون عوضاً للواهب، ولما كان ذلك يكاد يكون على سبيل ما لا تسبب فيه: لا من الوالد لكبر سنه، ولا من الوالدة لكونها عاقراً لا تلد، فكان وجوده كالوجود بغير سبب، أتى هبة محضة منسوبة إلى الله تعالى بقوله: من لدنك، أي من جهة محض قدرتك من غير توسط سبب" [18]. وحرف الفاء في (فَهبْ) ذكرت لترتيب ما قبله على ما بعده، فعلى الرغم من ذكره للأسباب المانعة لحصول الولد: من كبر السن، وضعف القوى، وعقر المرأة لم يقطع زكريا عليه السلام رجاءه بالله تعالى، وأمله فيهتعالى، وهو يرى إنعام الله تعالى وتفضّله على مريم عليها السلام، فما كان منه إلا رتّب استيهاب الولد على كونه هبة خالصة من عند الله تعالى، وعطفَ بالفاء دون الواو، وذلك لإظهار شدة حاجته لهذا الولد، ورغبته الملِحّة في سرعة حصوله دونما تأخير، ومما يوحي —والله أعلم– بهذه السرعة كذلك حروف الفعل (هب)، فهي تنطلق من اللسان دفعة واحدة بلا تباطؤ، ولا تقاطع. وكان ذلك من باب وصل المعاني عن طريق الحروف.

وورد دعاء طلب الولد في موضع آخر أيضا من القرآن الكريم، وذلك في قوله وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ [19]، حيث يطلب إلى الله تعالى في ضراعة وابتهال أن يرزقه من يخلفه بعد مماته، ولكن ليس بأسلوب الطلب الصريح، وذلك تأدبا مع الله تعالى، وقد " أطلق الفرد على من لا ولد له تشبيهاً له بالمنفرد الذي لا قرين له"[20]

وقد آثر التعبير بالوليّ عن الولد، وذلك " لبعد ذلك عنده، لكبره، وكون امرأته عاقرا"[21]. وجملة النداء الاعتراضية (وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً) جاءت " لتأكيد الاسترحام، وللمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه"[22].

وبعد تلك الآية تأتي استجابة الرب لطلب عبده زكريا عليه السلام في رعاية ورضى بقوله تعالى: (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً)، " فالرب ينادي عبده من الملأ الأعلى: يَا زَكَرِيَّا ويعجّل له البشرى (إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ)، ويغمُره بالرحمة، فيختار له اسم الغلام الذي بشّره به (اسْمُهُ يَحْيَى)، وهو اسم غير مسبوق (لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً)،إنه فيض الكرم الإلهي يُغدقه على عبده الذي دعاه في ضراعة، وناجاه في خفية، وكشف له عما يخشى، وتوجّه إليه فيما يرجو"[23]. وفي قوله (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ) إيجاز حذف، " أي: فاستجاب له دعاءه، فقال تعالى يا زكريا[24]، وبهذا النداء الإلهي "كأنما أفاق زكرياعليه السلام من غمرة الرغبة، وحرارة الرجاء على هذه الاستجابة القريبة للدعاء، فإذا هو يواجه الواقع... ويواجه معه وعد الله تعالى، وإنه ليَثِق بالوعد، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجهه ليطمئن قلبه، وهي حالة نفسية طبيعية في مثل موقف زكريا عليه السلام النبي الصالح الإنسان"[25]، فيسأل متعجبا بقوله: (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً)، وفي الاستفهام بقوله (کَم) تعجب "من قدرة الله تعالى، وبديع صنعه حيث يُخرج ولدا من امرأة عاقر، وشيخ كبير"[26]، والجملتان في الآية الكريمة (وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً) وقعتا حالا لتأكيد التعجب[27]. ومن الملاحظ في الآية أن التعبير القرآني آثر استخدام اسم الفاعل (عاقر) في دعائه، وتضرعه على اشتقاقات العقر الأخرى وخاصة الأفعال منها، وذلك لأنها (عاقر) أقدر على التعبير المقصود، وهو

وصف زوجته بعدم قدرتها على الحمل، وهو أمر لا حدوث فيه ولا تجدد، فلذا كان الأنسب له أن يستخدم له الاسم (عاقر) دون الفعل.

ومن بلاغة قوله: (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً) أن بها إيجاز الحذف في قوله (قَالَ كَذَلِكَ) فـ(كذلك) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الأمر كذلك، وهو إشارة إلى ما تقدم من وقوع وعده تعالى[28] . كما أن بالآية الكريمة التفاتا رائعا يتجلى في تعبيره بقوله (قَالَ كَذَلِكَ) حيث عبّر عن نفسه تعالى بصيغة الغياب (قال)، ثم أتى بتعبير الخطاب المتمثل في كل من (ربك) و (خلقتك) حيث " أخرج القول الثاني مخرَج الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة، وإدخال الروعة... ثم التفت من ضمير الغائب العائد إلى الرب، إلى ياء العظمة، إيذانا بأن مدار كونه هيّنا عليه تعالى هو القدرة الذاتية، لا ربوبيّته تعالى له عليه السلام...[29]، وإضافة الرب إلى ضميره تعالى في قوله (ربك) تفيد " تشريفا له وإشعارا بعلة الحكم، فإن تذكير جريان أحكام ربوبيته تعالى –على عبده زكريا تعالى– من إيجاده من العدم، وتصريفه في أطوار الخلق... إلى أن يبلغ كماله اللائق به مما يقلع أساس استبعاده عليه السلام لحصول الموعود..."[30].

ولهفة زكريا عليه السلام على الطمأنينة وزيادة اليقين بما بُشّر تدفعه إلى " أن يطلب آية وعلامة على تحقيق البشرى، فأعطاه الله تعالى آية تناسب الجو النفسي الذي كان فيه الدعاء والاستجابة... ويؤدي بها حق الشكر لله الذي وهبه على الكبر غلاما... وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس، ويحيا مع الله تعالى ثلاث ليال، ينطلق لسانه إذا سبّح، ويحتبس إذا كلّم الناس، وهو سوِيّ معافى في جوارحه، ولم يصب لسانه عوج، ولا آفة"[31]، وذلك في قول الله تعالى حكاية عنه عليه السلام: (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً)[32]، وقد ورد المعنى نفسه في قوله تعالى أيضا:قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً[33]، ولا يخفى ما في الآيتين من الاستئناف البياني، وهو الفصل لشبه كمال الاتصال، ويرد بحيث تثير الجملة الأولى سؤالا يُفهم من السياق، فتقع الجملة الثانية جوابا عنه، فهنا بعد أن طلب زكريا عليه السلام من ربه أن يجعل له علامة على ولده القادم جاءت جملة (قال آيتك ...) جوابا عن سؤال سأله السامع: فبماذا أجابه ربه؟ ومن المعلوم في أساليب الدعاء

القرآنية أنها تكثر فيها كلمة (قال)، وذلك لأن الدعاء عبارة عن أقوال وضراعات صدرت عن الداعين، وحكاها القرآن الكريم عنهم بالأسلوب الحكائي في معظم الأحيان.

ومن الواضح في الآيتين أن بينهما تباينا بسيطا مع أن الأحداث واحدة، وهذا على عادة القرآن الكريم فإنه إذا ذكر القصة في موضع، وأراد أن يعيدها في موضع آخر فلا بد أن يكون في الموضع الثاني إضافة جديدة لم تكن في الموضع الأول، فهنا يظهر جليا أن القرآن الكريم استخدم في آية مريم كلمة (ليال)، بينما آثر في سورة آل عمران استخدام كلمة (أيام)، وللمفسرين حول ذلك آراء متعددة، فقد نظر بعضهم إلى زمان نزول الآية ومكانها، واحتكموا إلى عادة العرب في تقديم الليالي على الأيام لأنهم يتتبّعون الأهلّة، ولما كانت الليالي من هذه الناحية مقدمة في الترتيب فقد ذكرها القرآن الكريم فيما نزل أولا من السور المكية، كسورة مريم، أما الأيام فذكرت في سورة آل عمران لأنها مدنية، وعلى هذا الأساس أُعطي السابق للسابق زمنيا (34) .

ومن العلماء من نظر إلى الكلمة ذاتها من حيث معناها وسياقها، فذهب الغرناطي إلى أن القرآن الكريم آثر استخدام كلمة (أيام) في سورة آل عمران " ليناسب قوله (إلا رمزا)، إذ الرمز ما يُفهم المقصود منه دون نطق، كالإشارة بالعين، وباليد، وقال مجاهد: بالشفتين، وكيفما كان؛ فإنما يُدرك بالعين، ولما لم يُذكر الرمز في آية مريم؛ ذُكر فيها الليل"(35)

ولا يخفى ما في كلمة (ربّ) من إيجاز الحذف، حيث حُذف حرف النداء من بداية الكلمة شعورا بالقرب المؤنس، وحذفت ياء المتكلم من نهاية الكلمة تخفيفا لنطقها على اللسان، وجريا على نسق سائر أمثلتها في القرآن.

وقد قُدّم المفعول الثاني لـ(جعل) وهو (لي) على المفعول الأول له، وهو (آية) لما في هذا النوع من الأساليب من " الاعتناء بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر"(36)، وفيه أيضا نوع من إثارة شوق السامع لمعرفة ما سيطلبه زكريا عليه السلام من ربه تعالى بعد تلك البشارة العظيمة، كما أن الحديث يدور حول نبي الله زكريا عليه السلام في الآيات، فكان هو المحور الرئيسي للموضوع، فلذا كان الأنسب أن يُقدم (لي) على (آية)، والله تعالى أعلم.

ووردت (آية) بالتنكير، للدلالة على التعظيم، أي: آية عظيمة تناسب عِظم هذا الأمر الخارق للعادة. وقد تكررت الكلمة في نفس الأسلوب في موضع آخر من القرآن الكريم، وذلك في قوله:

قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً (37).

وقد حفلت آيات الدعاء بمثل هذا النوع من التنكير الدال على التعظيم، فمن ذلك مثلا قوله تعالى:

وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً (38)، وقوله تعالى:قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ (39)، وقوله إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً (40)، وقوله تعالى:قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (41)

ففي كل من هذه الآيات التي تشتمل على الأسلوب الدعائي وردت كلمات (صبرا مائدة رحمة ملكا) بالتنكير، وذلك؛ للدلالة على معاني التعظيم التي يتطلبها سياق كل دعاء من الأدعية المذكورة. ومن التنكير ما ورد في دعاء زكريا عليه السلام للدلالة على التكثير، فمن ذلك مثلا قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً(42)، أي: ذرية كثيرة متتابعة. ومن هذا النوع أيضا وردت أمثلة أخرى في سياق الآيات الدعائية في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى:وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً (43)، وقوله تعالى:رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ(44)، وقوله تعالى:وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً(45)، فكلمات (أموالا أفئدة علما) وردت نكرة، وذلك للدلالة على التكثير، وبذلك يكون المعنى لكل كلمة في سياقها يدل على الكثرة، فيكون تنكير (أموالا وأفئدة وعلما) دالا على الأموال الكثيرة التي كانت سببا من أسباب طغيان فرعون، والأفئدة الكثيرة التي يستأنس بأصحابها أسرة خليل الله إبراهيم عليه السلام، والعلم الكثير النافع الذي يقضي على ظلمات الجهل، ويلبّي للمؤمن كل احتياجاته.

ومن الجمال البلاغي في الآية (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً)(46) أنها احتوت على المجاز المرسل في قوله (سبّحوا) حيث يرى الجمهور أن المراد بها (صلوا)، فإذا كان الأمر كذلك؛ فإنه من تسمية الشيء باسم جزئه، فالعلاقة هنا جزئية حيث أن المعنى الأصلي للفظ المذكور في الآية جزء من المعنى المراد(47) . وقيل: المراد بالتسبيح التنزيهُ، وهو قولهم: سبحان الله! ، وبهذا المعنى يعلل ابن أبي الإصبع هذا الاختيار القرآني بقوله: " وإنما خُصّ التسبيح بالذكر، لأن العادة جارية أن كل من رأى أمرا عجِب منه، أو رأى فيه

بديع صنعه، أو عجيب حكمه؛ يقول: سبحان الله! سبحان الخالق!، فلما رأى حصول الولد من شيخ وعاقر؛ عجِب من ذلك، فسبّح، وأمر بالتسبيح"(48).

فكهذا اشتمل دعاء زكريا عليه السلام على عديد من الظواهر البلاغية التي أضفت على التراكيب القرآنية جمالا، وورد في السياقات الجميلة المتعددة بأساليبه المؤثرة المتنوعة، وذلك لتزيد المعاني جمالا يرُى آثاره واضحة جلية في الألفاظ، والتراكيب، والدلالات العديدة.

دعاء أيوب عليه السلام

ومن الأدعية الجميلة ما ابتهل بها نبي الله الصابر أيوب عليه السلام، حيث تضرع إلى الله عليه السلام حين ابتلاه ببلاء من عنده، وقد ورد دعاؤه عليه السلام في موضعين من القرآن الكريم هما في: قوله تعالى:

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(49)، وقوله تعالى: وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ(50)

ففي الآية الأولى وردت كلمة (الضر) معرّفة بالألف واللام، ليدل على الجنس، أي: مسني جنس من الضر الذي لم يعرف له البشر مثيلا، ولا رأوا له نظيرا، ولا هم يقوون على تحمل مثله. ومن اللطيف في هذه الآية أن النبي الصابر أيوب عليه السلام آثر استخدام فعل (مسّ) الذي هو يدل في اللغة العربية على الإصابة الخفيفة، وفي هذا تعبير عما "سلكه أيوب عليه السلام في دعائه من الأدب مع الله، إذ جعل ما حلّ به من الضر كالمس الخفيف"(51). ويتجلى هذا الأدب أيضا في أنه لم يسند الضر إلى الله تعالى مع أنه كان يعلم أن ذلك ابتلاء رباني، وذلك من المجاز العقلي. وتلك هي الطريقة التي دأب عليها الأنبياء – عليهم السلام– في التأدب مع الله تعالى، فهاهو لوط عليه السلام لما أراد أن يطلب النجاة لنفسه، ولأهله –عن الثقافة السخيفة التي كان قومه يتعاطونها– قال:رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ(52)، فهم قوم سوء ابتدعوا أمرا منكرا لم يسبقهم إليه أحد من العالمين، ولشدة قبح هذا العمل لم يصرّح لوط عليه السلام بذكره، بل عبّر عنه بالاسم الموصول (مِمَّا يَعْمَلُونَ) حشمة وتأدبا.

وفي قوله (وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) تعريض منه عليه السلام حيث إنه لم يرد أن يطلب العافية من ربه تعالى بالأسلوب المباشر الذي لطالما يدور على ألسنة المبتلين، ولابن عاشور – رحمه الله كلام جميل بهذا الصدد يقول عن جملة أيوب عليه السلام(وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ): "فيها تعريض بطلب كشف الضرّ عنه بدون سؤال، فجعل وصفَ نفسه بما يقتضي الرحمة له، ووصفَ ربه بالأرحمية تعريضاً ... وكونُ الله تعالى أرحم الراحمين؛ لأن رحمته أكمل الرحمات لأن كل من رحِم غيرَه: فإما أن يرحمه طلباً للثناء في الدنيا، أو للثواب في الآخرة، أو دفعاً للرقة العارضة للنفس من مشاهدة من تحق الرحمة له، فلم يخل من قصد نفع لنفسه، وأما رحمته تعالى عباده

فهي خلية عن استجلاب فائدة لذاته العَليّة"[53]، والدليل على أن الجملة السابقة تعريض منه عليه السلام هو ما استجاب الله تعالى له من دعائه حيث يقول الله تعالى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ[54] فقوله (فَاسْتَجَبْنَا) دلت على سرعة الإجابة، وتقبل الدعاء بصورة مثلى، وما يدل على هذا المعنى هو أن "السين، والتاء للمبالغة في الإجابة، أي: استجبنا دعوته العُرْضية بإثر كلامه، وكشفنا ما به من ضرّ، إشارة إلى سرعة كشف الضرّ عنه"[55].

وورد الرحمة في سياق المفاضلة (وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) عند أيوب عليه السلام يدل بوضوح على قوة إيمانية عَرفت الرحمة، وذاقت حلاوتها من قبل أن يُبتلى بما ابتُلي به، حيث إنه عليه السلام ذاق حلاوة الرحمة عند زوجته، وذلك أثناء مرضه الذي تخلّى فيه عنه الجميع إلا زوجته الصابرة التي وقفت إلى جانبه تخدمه، وتقوم بكل احتياجاته، فهو عليه السلام رأى من الرحمة البشرية الشيء الكثير متمثلا في زوجته الصبورة الخدومة، ولذا لما أراد أن يخاطب خالقه الرحمان، وربه الرحيم آثر استخدام صيغة أفعل التفضيل (أرحم) التي هي أقدر على التعبير بالشعور الذي كان يشعر به أيوب عليه السلام.

اسم التفضيل في دعاء يوسف عليه السلام

وقد يرد اسم التفضيل في سياق الآية الدعائية؛ ليفاضل بين أمرين عارضين، كما ورد في سياق الدعاء الذي تضرع به يوسف عليه السلام إلى ربه تعالى حيث قال: قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ[56]، فورد هنا كلمة (أحب) اسم تفضيل تنوعت أراء المفسرين حوله، فقال أبو حيّان : " (أحب) هنا ليست على بابها من التفضيل، لأنه لم يحب ما يدعونه إليه قط، وإنما هذان شران، فآثر أحد الشرّين على الآخر، وإن كان في أحدهما مشقة وفي الآخر لذة، لكن لِما يترتب على تلك اللذة من معصية الله وسوء العاقبة، ولم يخطر له ببال، ولِما في الآخر من احتمال المشقة في ذات الله، والصبر على النوائب، وانتظار الفرَج، والحضور مع الله تعالى في كل وقت داعياً له في تخليصه؛ آثره ثم ناط العصمة بالله ، واستسلم لله كعادة الأنبياء والصالحين، وأنه تعالى لا يصرف السوء إلا هو"[57]. إلا أن ابن عاشور –رحمه الله– ذهب إلى أن أفعل التفضيل (أحبُّ) على حقيقته، ولا داعي فيه إلى التأويل" فالإخبار بأن السجن أحبُّ إليه مِن الاستمتاع بالمرأة مستعمل في إنشاء الرضى بالسجن في مرضاة الله تعالى، والتباعد عن محارمه، إذ لا فائدة في إخبار من يعلم ما في نفسه"[58].

وتعبيره عليه السلام بـ (أَصْبُ إليهن) كناية عن قبول ما قلن، وما دعونه إليه من أمر السوء والفحشاء الذي لم يرد عليه السلام أن يبوح به ويصرح، ولذا آثر الكناية على التصريح لما في ذلك من الأدب الجم في الخطاب إلى الله تعالى، والتضرع والابتهال إليه[59]، والدليل على هذا المعنى هو التعبير بالاسم الموصول في (مما يدعونني) عن استهجان ذكر مراودة امرأة العزيز لنبي الله الطاهر العفيف يوسف عليه السلام، ومن اللطائف في هذا التعبير هو نسبة الدعوة إلى جميع النسوة بقوله (يدعونني إليه)، وذلك لأنهن إن لم يشتركن في الدعوة إلى السوء والفحشاء فإنهن اجتمعن في اللوم على يوسف عليه السلام لأنه لم يجب لامرأة العزيز دعوتها، والله تعالى أعلم.

ومن الجمال التعبيري في دعاء أيوب عليه السلام هو ما ورد في قوله (أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) من تقديم (نُصب) على (عذاب)، وليس ذلك لمراعاة التناسب مع قبلها أو ما بعدها من فواصل الآيات فحسب، بل إنه من باب الترقي والتدرج في التعبير أيضا، حيث روعي فيه التدرج في الشدة، بدءا بالأضعف (نصب) وهو التعب، وانتهاء بالأشد وهو (عذاب) الذي عبّر عنه أيوب عليه السلام في سورة الأنبياء بالضُّر.

ومما يلاحظ في قوله (أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) أنه عليه السلام أسند المسّ بالنصب والعذاب إلى الشيطان، وتعددت أقوال المفسرين وتنوعت في تعليل هذا الإسناد، وكلها مبنية على جعل الباء في (بنصب) إما للتعدية، وإما للعلة، وما ارتضاه الطاهر بن عاشور هو " أن تُحمل الباء على معنى السببية بجعل النصب والعذاب مسبِّبين لمس الشيطان إياه، أي: مسّني بوسواس سببه نصب وعذاب، فجعل الشيطان يوسوس إلى أيوب بتعظيم النصب والعذاب عنده، ويُلقي إليه أنه لم يكن مستحقا لذلك العذاب؛ ليُلقي في نفس أيوب سوء الظن بالله أو السخط من ذلك. أو تُحمل البَاء على المصاحبة، أي: مسّني بوسوسة مصاحبة لضرّ وعذاب"[60]، ومن كل ذلك يظهر أدبه عليه السلام بعدم إسناد الشر إلى ربه تعالى.

دعاء سليمان عليه السلام

وسليمان عليه السلام هو واحد من الأنبياء الذين جرى الدعاء على لسانهم في القرآن الكريم، فقد ورد الدعاء موضعين من قصته عليه السلام في القرآن الكريم: الأول في سورة (ص)، وهو قول الله تعالى حكاية عنه عليه السلام:قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ[61]، والثاني في سورة النمل، وهو قول الله تعالى:وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ[62]، فهو عليه السلام يتضرع إلى تعالى في الدعاء الأول طالبا منه

المغفرة، والملك الذي لم يسبق مثيل في تاريخ البشرية، وفي الدعاء الثاني يستمد من الله تعالى العون والتوفيق للقيام بتأدية شكر لله تعالى على نعمه الكثيرة الجليلة التي أنعم بها عليه، وعلى والديه، وأن يوفقه تعالى للأعمال الصالحة المرضية، طالبا منه الدخول في رحمته الواسعة التي وسعت كل شيء.

ومن جمال الآية في الدعاء الأول أنه قدّم الاستغفار على استيهاب الملك على عادة الأنبياء والرسل –عليهم السلام– في تقديمهم المطالب الأخروية على المطالب الدنيوية، يقول البيضاوي رحمه الله تعالى: "وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين، ووجوب تقديم ما يجعل الدعاء بصدد الإجابة"(63)، وإلى جانب ذلك لا يخفى ما في تنكير (ملكا) من معنى التعظيم، أي: أن سليمان عليه السلام طلب من ربه تعالى ملكا عظيما لا يليق بغيره من ملوك الدنيا، فجاء التنكير "على إرادة وصف الملكِ بالعظمةِ"(64). والفاصلة التي انتهت في الدعاء الأول بقوله (إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ) جاءت مناسبة لما قبلها من فواصل الآيات السابقات، كـ (ثم أناب)، كما أن كلمة (الوهّاب) ناسبت كلمة (هبْ) التي سبقتها، ومهّدت السبيل لأن تجيء فاصلة الآية الكريمة بكلمة (الوهّاب)، وهذا من باب الإرصاد أو التسهيم الذي يعبر عنه علماء البلاغة برد العجز على الصدر أيضا(65). ويلاحظ في هذا الدعاء أن سليمان عليه السلام قد بالغ في طلب الملك الذي من صفته أنه لا يكون لأحد غيره، فناسب تلك المبالغة الإتيان بالفاصلة بكلمة (الوهاب) على صيغة المبالغة، وفيها دلالة على أن الله تعالى إذا أراد أن يهب فإنه يهب بكثرة وبغير حساب. ويوجد في الدعاء بهذا الأسلوب قصر بتقدير: " أنت القوي الموهبة لا غيرك؛ لأن الله يهب ما لا يملك غيره أن يهبه"(66) حيث قصر صفة الهبة على الله تعالى فليس أحد يهب مثله. ومنه أيضا قوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ(67) حيث وقع الإرصاد في قوله (افتح)، وجاءت الفاصلة مناسبة له في قوله (الفاتحين).

وهذا النوع من تناسب الفواصل هي ميزة من مزايا التعبير القرآني، ولذا حفل القرآن الكريم بأمثلة كثيرة منه في السياقات والأساليب الدعائية، مثل: قوله تعالى: قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(68)، وقوله تعالى: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(69)، وقوله تعالى: وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(70)، ومن الملاحظ في هذه الآيات الكريمة أن طلب المغفرة جاء مقدَّما على طلب الرحمة (رب اغفر لي/ فاغفر لنا/ وقل رب اغفر) وتأخر طلب الرحمة (وأدخلنا / وارحمنا/ وارحم) ليتناسب مع الفاصلة التي تنتهي بها كل آية من تلك الآيات الكريمة، وهي

الكلمة الأخيرة في قول الله تعالى في جميع الآيات السابقة (أَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) ومن الواضح أنها تشتمل على تأكيد الرحمة نفسها التي طلبها كل موسى تعالى، والمؤمنون الصادقون، وأُمر بطلبها النبي في الآية الأخيرة. إلا ما كان من دعاء موسى عليه السلام في قوله تعالى: أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (71)، حيث وردت الفاصلة فيه متناسبة مع سياق الدعاء الذي ورد فيه فقد كان المقام يتطلب المغفرة التي هي الأهم في هذا الموضع، ولذلك قدم طلب المغفرة على طلب الرحمة أولا، ثم انتهت الآية بتأكيد المغفرة لتتناسب مع السياق والمقام الذي وردت الآية فيه، وهو مقام الاستغفار عما بدر من موسى عليه السلام من الجرأة في الخطاب مع ربه تعالى(72).

أما الدعاء الثاني وهو قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ(73)، فإنه أيضا يشتمل على مجموعة من الظواهر والأساليب البلاغية الجميلة التي أضفت على الآية روعة وبهاء، فمن ذلك مثلا ورود حرف النداء (رب) بحذف المضاف إليه منه، وهو ياء المتكلم تخفيفا لها على اللسان، كما حذف من أوله أداة النداء ، وذلك لإحساسه عليه السلام بقربه الشديد من ربه تعالى كعادة الأنبياء والصالحين في أدعيتهم التي وردت في القرآن الكريم. ومن جمال الدعاء في هذه الآية الكريمة هو إيثار فعل (أوزعني) على غيره من الأفعال التي هي في معناه كـ(ألهمني) مثلا، وذلك لأنها أشمل معنى، وأعم دلالة، فهي تعني "اجمعني كلي، اجمع جوارحي، ومشاعري، ولساني، وجناني، وخواطري، وخلَجاتي، وكلماتي، وعباراتي، وأعمالي، وتوجُّهاتي،اجمعني كلي، اجمع طاقاتي كلها، أولها على آخرها ، وآخرها على أولها، (وهو المدلول اللغوي لكلمة أوزعني) لتكون كلها في شكر نعمتك عليّ وعلى والديّ. وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مست قلب سليمان عليه السلام في تلك اللحظة، ويصور نوع تأثره، وقوة توجهه، وارتعاشة وجدانه، وهو يستشعر فضل الله الجزيل، ويتمثل يد الله عليه، وعلى والديه، ويحس مس النعمة والرحمة في ارتياع وابتهال"(74).

ويلاحظ في هذا الدعاء أن كلمة النعمة وردت مفردة في قوله (نعمتك)، وذلك للتعبير عن إحساسه عليه السلام بعظم كرم الله تعالى، وحُسن تفضّله عليه، حيث أنعم عليه بنعم كالملك الذي لن يتكرر لأحد بعده، وتسخير الجن والإنس، والطير، والرياح، ونعمة تعلم منطق الطير، وتفهّم كلام النملة، ولا شك أن وراء هذه النعم جميعا مبدع قادر لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ويحلو لسليمان عليه السلام أن يعبر عن هذه النعم كلها بصيغة

الإفراد، وذلك –والله أعلم– لأن نعم الله تعالى ذات نمط فريد، حيث يصعب على الإنسان المنعَم عليه عدُّها، ويستحيل إحصاؤها بحكم قول الله تعالى: وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ[75]، فإفرادها فيه تعظيم لشأنها، وكذلك إضافتها إلى الله تعالى قد كستْها ثوبا من التعظيم " مما يجعل تَذكُّر واحدة منها كافيا في أن يَخِرّ المنعَم عليه ساجدا لربه شكرا عليها، فكيف بتذكر نعمه كلها أو بعضها؟ كما يومئ الإفراد إلى أن الإنسان مهما أطاع ربه وانقطع له، وأوغل في عبادته؛ لا يستطيع أن يؤدي حق الشكر على نعمة واحدة، إذ أن التوفيق للطاعة والعبادة هو في حد ذاته نعمة تستدعي الشكر عليها، وأين الإنسان من معرفة كل ما أنعم الله تعالى عليه، وهو يجهل من نعم الله في نفسه أكثر مما يعلم، حتى يمكنه الشكر على كل النعم؟"[76]. ولا يخفى ما في إضافة النعمة إلى كاف الخطاب في قوله (نعمتك) من تشريف وتعظيم، فهي نعمة جليلة لا يقدر أحد على إيتائها، فقليل منها كثير من عند الله تعالى. وقيل: إن " إضافة النعمة للاستغراق، أي: جميع نعمك"[77]. وفي التعريف بالاسم الموصول (التي) توضيح للمراد بهذه النعمة الموجبة للشكر، فهي نعمة تفضل الله تعالى بالإنعام بها على عبده النبي سليمان عليه السلام. ومما يلاحظ في هذه الآية أن التعبير في قوله (برحمتك) جاء بالباء الجارة كما هو واضح، بينما ورد في دعاء موسى عليه السلام بحرف الجر (في) ، وذلك في قوله تعالى: وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[78]، والأمر في هذا الاختلاف راجع إلى دلالة الحرفين على المراد، ففي دعاء موسى عليه السلام (في رحمتك) يدل حرف الجر –والله أعلم–على أن الرحمة يُدخل فيها، وهي تحوي المرحومين وتسعهم من كل جانب، فيغمرهم فيضها الرحماني، خاصة وأنها قد وردت عند المفسرين بمعنى الجنة. أما في دعاء سليمان عليه السلام فجاء حرف الجر (برحمتك) دالا على السبيل والواسطة للانضمام في زمرة الصالحين من عباد الله، وذلك السبيل هو الرحمة، لا شيء سواها. ومما يلاحظ في دعاء سليمان عليه السلام هو إضافة (عباد) للكاف، وذلك تشريفا لهم ولإظهارهم بمظهر القدوة التي تُتّبع، فيسير المرء على خطاهم، ويتخلى بأخلاقهم؛ لأنهم عباد الله المعدودون في الأخيار، ووصفهم بالصلاح زيادة في التعظيم.

وورد مثل هذا الدعاء في موضع آخر من القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى:
وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ[79]

إلا أن بهذا الدعاء زيادة على دعاء سليمان عليه السلام السابق وهو قوله (وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي)، وهو للاستطراد في المطالب المتقدَّم بها إلى الله تعالى، حيث إن الإنسان أثناء دعائه للوالدين لا يغفل عن " عن التفكر في مستقبله بأن يصرف عنايته إلى ذريته، كما صرفها إلى أبويه؛ ليكون له من إحسان ذريته إليه مثل ما كان منه لأبويه، وإصلاح الذرية يشمل إلهامهم الدعاء إلى الوالد" [80]. وفي التعبير بالجار والمجرور في (أصلح لي) تعريض بأن في إصلاح ذريته فائدته ونفعه، كما أن به تدرجا في إتمام النعم عليه.

الحواشي والهوامش

(1) سورة مريم: 1-11.

(2) انظر: قصص الأنبياء لأبي الفداء بن كثير القرشي، تحقيق: عبد القادر عطا، المكتبة الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية، 1402هـ – 1982م : 368، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، الطبعة الخامسة عشرة عام 1408هـ – 1988م.، 4 :2303.

(3) سورة آل عمران:37.

(4)سورة آل عمران: 38.

(5) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، ضبط وتصحيح: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ – 1995م. ،3: 404، وتفسير البيضاوي المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.، 1: 26، والبحر المحيط لمحمد بن يوسف المعروف بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، 1412هـ – 1992م.، 6:172، وتفسير أبي السعود، 4: 226.

(6) انظر: الإيضاح في معنى الاحتراس، ونوعيه للخطيب القزويني، شرح: د. محمد عبد المنعم الخفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثالثة، 1413هـ=1993م.، 1: 126. وبغية الإيضاح، 2: 142.

(7) الكشاف، 2: 404.

(8)سورة المائدة: 54.

(9) الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن القاسم، الرياض، بدون تاريخ.

(10) انظر: الكشاف، 2: 405، وتفسير البيضاوي المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.، 2: 26، والبحر المحيط، 6: 174، وتفسير أبي السعود، 4:229.

(11) انظر: دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1410هـ – 1989م. 100-102.

(12) مفتاح العلوم، السكاكي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1356هـ - 1937م. : 138. وانظر: الإيضاح: 295، وبغية الإيضاح، 2: 126.

(13) تفسير أبي السعود، 4: 228.

(14) انظر: الكشاف، 2: 405.

(15) الكشاف، 2:405.

(16) تفسير أبي السعود، 6: 172.

(17) التحرير والتنوير، لطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت، 1420هـ - 2000م. 16: 67.

(18) البحر المحيط، 3: 126.

(19) الأنبياء: 89.

(20) التحرير والتنوير، 9: 201.

(21) البحر المحيط، 6: 172.

(22) تفسير أبي السعود، 4: 229.

(23) في ظلال القرآن، 4:2302.

(24) تفسير أبي السعود،4: 229.

(25) في ظلال القرآن، 2:2303.

(26) انظر: الكشاف، 2: 406.

(27) فتح القدير للشوكاني، للشوكاني، تحقيق: يوسف الغوش، دار المعرفة، الطبعة الرابعة عام 1428هـ - 2007م.

3: 323.

(28)انظر: الكشاف، 6: 206، وتفسير أبي السعود، 4:232.

(29) تفسير أبي السعود، 4: 231.

(30) المصدر نفسه.

(31) في ظلال القرآن، 4: 2303.

(32) سورة مريم: 10.

(33)سورة آل عمران: 41.

(34) انظر: تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب، 6: 148.

(35) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجية المتشابه اللفظ من آي التأويل لابن الزبير الغرناطي، تحقيق: عبد الغني محمد على الفاسي، دار الكتب العلمية، بدون التاريخ ورقم الطبعة. 1: 299.

(36) تفسير أبي السعود، 4: 304.

(37)سورة آل عمران: 41.

(38)سورة البقرة: 250.

(39)سورة المائدة: 114.

(40)سورة الكهف: 10.

(41)سورة ص: 35.

(42)سورة آل عمران: 38.

(43)سورة يونس: 88.

(44)سورة إبراهيم: 37.

(45)سورة طه: 114.

(46)سورة مريم: 11.

(47) انظر: شروح التلخيص، 4: 24-34، وبغية الإيضاح، 90:3-95.

(48) البحر المحيط، 6: 176.

(49)سورة الأنبياء: 83.

(50)سورة ص: 41.

(51) التحرير والتنوير، 9: 195.

(52) الشعراء: 169.

(53) التحرير والتنوير: 9: 197.

(54)سورة الأنبياء: 84.

(55) التحرير والتنوير: 9: 199.

(56)سورة يوسف: 33.

(57) البحر المحيط، 6: 273.

(58) التحرير والتنوير، 12: 265.

(59) انظر: حاشية الشهاب، 3: 30.

(60) التحرير والتنوير، 23: 270.

(61)سورة ص: 35.

(62)سورة النمل: 19.

(63)تفسير البيضاوي المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.. 5:94.

(64) تفسير أبي السعود، 5: 480.

(65) انظر: الإيضاح، 6: 102. ومعجم المصطلحات البلاغية، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي 320.، 1403هـ=1983م.

(66) التحرير والتنوير، 23: 263.

(67)سورة الأعراف: 89.

(68)سورة الأعراف: 151.

(69)سورة المؤمنون: 109.

(70) المؤمنون: 118.

(71)سورة الأعراف: 155.

(72) انظر: تفسير أبي السعود3: 277.

(73)سورة النمل: 19.

(74) في ظلال القرآن لسيد قطب، 5: 378.

(75)سورة إبراهيم: 34.

(76) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، (دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن)، للدكتور محمد الأمين الخضري، مطبعة الحسين الإسلامية، الطبعة الأولى، عام 1413هـ – 1993م. 89.

(77)سورة روح المعاني، 19: 180.

(78)سورة الأعراف: 151.

(79)سورة الأحقاف: 15.

(80) التحرير والتنوير، 13: 362.